مقال

بقلم العميد المتقاعد ادونيس نعمة

عيد الجندي المجهول في العالم ولبنان

في مقدمة الاعياد الوطنية التي انشأتها الامم الراقية في مطلع هذا القرن ودرجت على الاحتفال بها في مواعيد معينة عيد تكريم "الجندي المجهول".

لم يكن لبنان ليشذ عن هذه القاعدة بعدما تسلم جيشه الفتي عام 1945 وشيد لشهدائه الذين قضوا في سبيل الواجب منذ ذلك التاريخ نصبا اول قرب مقر وزارة الدفاع القديم ثم أنشأ لهم نصبا آخر، عام 1949، قرب المتحف، في مكانٍ تشمخ فيه اشجار السرو والشربين الخضراء الى جانب العمد الاثرية، وحيث تزهو الازاهير من كل شكل ونوع. ففي 31 تموز من كل عام يقام في باحة "الجندي المجهول" احتفال مهيب تخليدا لذكرى الشهداء العسكريين الذين قضوا في ميادين الشرف دفاعا عن الوطن او في معرض القيام بالوظيفة يرأسه عماد الجيش القائد الاعلى، ويتولى ادارته العميد قائد منطقة بيروت، ويحضره اركان الجيش، وكبار الضباط، واهل الشهداء، والملحقون العسكريون في البعثات الديبلوماسية، والمدير العام لقوى الأمن الداخلي يحف به رهط من ضباط هذه المؤسسة، الى جانب وفد كبير من قدماء القوى المسلحة والمحاربين القدماء وجماهير الشعب.

وتحيط بارجاء المكان الاكاليل التي تقدمها السلطات والضباط والملحقون العسكريون في السفارات الاجنبية وأهالي الشهداء والهيئات الاخرى وهي تحمل اسماء مقدميها وبعض الشعارات. وتركز في باحة المكان لوحات كتبت عليها اسماء الضباط الذين استشهدوا منذ العام 1945 وهم بالعشرات. يُفتتح الاحتفال بقرع الطبول، ثم تتلى اسماء الشهداء، ويتقدم العماد قائد الجيش ويضع اكليلا من الزهر على قاعدة نصب "الجندي المجهول"، وهكذا يفعل الملحقون العسكريون، وممثلا رابطة قدماء القوى المسلحة وجمعية المحاربين القدماء. وبعد ان يوقد القائد الاعلى الشعلة تعزف موسيقى الجيش "لحن الموت" وتعلن دقيقة صمت، ثم يقرأ العميد قائد منطقة بيروت كلمة القائد الاعلى. ومثل هذا الاحتفال يجري في الوقت نفسه، بصورة مصغرة، في بعض المراكز والثكنات كحمانا وصربا والفياضية وابلح ومرجعيون وصيدا وراشيا وغيرها من الاماكن.

فما قصة الجندي المجهول؟

عملت الاوطان، منذ فجر التاريخ على تجسيد معانيها وتذكاراتها بالآثار المادية، فاقامت لابطالها وجنودها الذين بذلوا دماءهم في سبيل الدفاع عنها والذود عن حياضها الانصاب والتماثيل والاضرحة لتبقى ذكراهم حية في نفوس المواطنين. ولعل اول مَن اقدم على مثل هذا العمل الوطني هم الاغريق الذين قاومت حفنة من جنودهم لا يتجاوز عددها الثلاثمئة جندي جيشا عظيما من الفرس بقيادة زارش في مضيق ترموبيلا عام 480 قبل الميلاد، فأوقعت منهم آلاف القتلى، لكنهم قضوا هم على بكرة ابيهم مع ملكهم ليونيداس، وقد اقيم لهم في ما بعد ضريح عظيم كتبت عليه هذه العبارة: "ايها المار من هنا إذهب وقل لإسبرطة اننا متنا اطاعة لشرائعها".

وتفننت الشعوب بعد ذلك في تكريم شهدائها بشكل او بآخر على مر السنين، وما زلت اذكر انه عندما وضعت الحرب العالمية الاولى اوزارها ابتنت فرنسا والمانيا، الدولتان المتقاتلتان في الامس، قبرا كبيرا دفنتا فيه بقايا الجنود القتلى من الفريقين وعددهم اربعمئة الف قُتلوا في موقعة فردان، واقامتا فوق القبر اثراً كبيراً حُفرت على بلاطه الفوقي كلمة "Pax" باللغة اللاتينية ومعناها "السلام". ولما كان من المستحيل نقش اسماء جميع الجنود القتلى على هذا الأثر فقد اكتفت الدولتان به، وهو الذي اوحى الى المسؤولين بفكرة انشاء نصب "الجندي المجهول".

صاحب الفكرة هو فرانسوا سيمون، عامل طباعة في بلدته ريمس في فرنسا اشترك ابناه في معركة ضارية عام 1916 قرب بلدة ريمس، فقُتل احدهما واصيب الآخر بجروح خطرة. وكان فرنسوا ينظم فرق متطوعين لدفن الجثث المرسَلة من الجبهة الى البلدة، وعمله هذا جعله يفكر في الجنود القتلى الذين لم يعثر على جثثهم او الذين لم تعرف هوياتهم.

وفي تشرين الثاني 1918 اقامت بلدة ريمس حفلة تكريم لقتلى الحرب من ابنائها، وفي تلك المناسبة اعلن فرانسوا سيمون فكرته بهذا السؤال: "لماذا لا تفتح فرنسا ابواب البانتيون للجنود الابطال المجهولين الذين ماتوا في سبيلها؟"، مقترحاً تخصيص قبر واحد لتكريمهم تُكتب عليه عبارة "جندي 1914 – 1919"، فتبنت الصحافة الفكرة وظلت تلاحقها حتى وافق عليها البرلمان الفرنسي.

نصب الجندي المجهول في المتحف.

الرئيس بشارة الخوري يصافح قائد الجيش اللواء فؤاد شهاب في احتفال الاستقلال.

كان اول مَن سعى الى تحقيق الفكرة وابرازها الى حيز الوجود المسيو اندريه ماجينو وزير الحربية الفرنسية آنذاك، وصاحب الحصن الدفاعي المعروف باسمه. فقد ذهب ومعه بعض قادة الجيش الفرنسي الى مدينة فردان، وهناك جمع في قاعة من قاعات احد الحصون الكبرى جثث ثمانية من الجنود الذين سقطوا في الحرب، فوُضعت كل جثة في صندوق خاص، وصُفّت الصناديق الثمانية صفا واحدا ونادى الوزير احد الجنود، وهو اوغست تان، وقال له: "ايها الجندي، اقام الوطن تحت قوس النصر في باريس ضريحاً لجندي مجهول من اخوانك الذين ماتوا تحت العلَم، فأنا اعهد اليك في اختيار هذا الجندي".

فاضطرب الجندي واقترب من وزير الحربية مادا يدا مرتجفة وتناول منه باقة من الزهر ثم حار في امره اين يضعها. وكان اوغست تان من الجيش السادس، وقطعته تعرف بالرقم 132، فجمع هذه الارقام، فكانت النتيجة 6، فقال في نفسه: "الجيش 6 والمجموع 6، اذن فليقع اختياري على الصندوق السادس"، وهكذا كان.

مشى الجندي بخطىً ثابتة حول الصناديق وهو يعد: واحد - اثنين - ثلاثة - اربعة - خمسة - ستة ووضع باقة الزهر على الصندوق السادس مؤدياً له التحية العسكرية، واحتُفل في اليوم التالي بنقل هذه الجثة المجهولة الى باريس حيث دفنت في الضريح المقام تحت قبة قوس النصر حيث أُوقد سراج دائم الاشتعال، وحيث يعيَّد لـ"الجندي المجهول" مرة كل عام في ذكرى الهدنة. ذلك هو ضريح الجندي المجهول، وما زلنا نذكر المقال الرائع الذي كتبه ميخائيل نعيمة لمناسبة اول حفلة تذكارية جرت للجندي المجهول في باريس.

وقد اتبعت معظم الدول هذه الطريقة في تكريم القتلى من جنودها. في بداية عهد الانتداب انشأت الدولة الفرنسية نصبا تذكاريا لقتلى جيش الشرق في جادة الفرنسيين في بيروت (قرب فندق نورماندي) شغلت مساحته حوالى 200 متر مربع، وكان على شكل نصف دائرة تحيط بها عمُد من الحجر الموقّع تعلوها سلسلة من التيجان المزخرفة عليها غصون غار من البرونز.

وفي وسط ساحة النُصُب اقيم مرتفَع من الحجارة عليه خوذة من البرونز، وحراب فوقها سعف من النخيل من المعدن ذاته، وكان منقوشاً على دائره، على ما نذكر، هذه العبارة باللغة الفرنسية: "المجد للجنود الفرنسيين الذين سقطوا في ساحة الشرف".

وبعد زوال الانتداب نزع هذا النصب من مكانه لبعض الاعتبارات، ونُقل جزء منه الى موضع آخر في محلة نهر الكلب حيث لا يزال هناك.

اما الجيش اللبناني فقد اقام، بعد انضمامه الى الحكومة اللبنانية سنة 1945، اول نصب للجندي المجهول وراء البناية التي كانت تشغلها وزارة الدفاع سابقاً، الا انه اهمل في ما بعد وأُنشيء نصب آخر في الحديقة المجاورة للمتحف نُقشت على صفحته العليا عبارة "المجد الخالد للَّذين استشهدوا في سبيل الوطن".

في السادس من ايار 1949 ازيح الستار عن نصب شهداء الجيش في شارع فؤاد الاول في حفلة رسمية حضرها رئيس الجمهورية الشيخ بشارة الخوري واركان الحكومة والعديد من النواب والصحافيين. وكانت الساعة تدق الحادية عشرة عندما وصل فخامة الرئيس الى المكان، فاستقبلته موسيقى الجيش بمعزوفة التعظيم ثم بالنشيد الوطني اللبناني، وبعد ان عرض الجيش اتجه نحو النصب وازاح عنه الستار بينما كانت موسيقى الجيش تصدح بمعزوفة الموت، ثم وضع الرئيس وبعض الرسميين اكاليل من الزهر على النُصُب وألقى هو الكلمة التالية: "ايها الضباط والجنود البسلاء، خطأً يعتبر الناس ان صلة الاحياء بالاموات تنقطع يوم يوارى هؤلاء الثرى ويُنزَلون في فجوات القبور جيرة لا تتزاور ولا تتقارب، فالحقيقة ان مَن غابوا عنا هم على علاقة واتصال دائمين بنا. فكم ناجينا ميتا وكم استلهمناه، لا بل كم استنجدناه في الظرف العصيب، والخَطْب النازل.

والامة نفسها تظل حية بقدر ما تقرب موتاها اليها وتجعل حرمتهم دينا لها ودَينا عليها، وتستوحيهم الاعمال الجميلة المجيدة خصوصاً مَن استشهد منهم في سبيل المثل العليا، وهل من مثل اعلى من التضحية الكاملة وبذل الحياة في سبيل الوطن وكيانه وسلامته وعزه ومجده؟ نَعَم، هؤلاء هم رفاقكم في الجندية. ارتحلوا عن هذا العالم مرتدين حلة الشهادة المجيدة. هؤلاء هم الألى اردنا ان تخلَّد ذكراهم في قلوبكم وقلوبنا مثالا حيا ناطقاً بجميل المواعظ وأجَلّ آيات البطولة، وموحياً للشعب اللبناني الكريم اسمى معاني الحياة وارفع الامثولات في الملمات.

ايها الضباط والجنود البواسل، ضعوا امام اعينكم، وضعوا في نفوسكم، ذكرى رفاق لكم غابت اجسامهم وحضرت ارواحهم مرفرفة حولكم. وانتم ايها الراحلون الكرام، ثقوا بأن لبنان لا ولن ينساكم، واملوا علينا تلك الوصايا التي تأخذ من جلال الموت قيَماً لا تغالى، ومن هدوء الآخرة والخلود وزنا لا يوازى، وارقدوا بأمان اذ وفيتم قسطكم الوافر من الذود عن حياض الوطن وساهمتم في علو شأنه.

سكب الله عليكم شآبيب الرحمة والرضوان، ونفعنا بما قمتم به من مجيد الافعال وطيب الاعمال، وخلَّد ذكركم في قلوب رفاقكم وقلوب اللبنانيين اجمعين".